

٥- علي محمود طه

شاعر الفن والجمال

للاستاذ دريني خشبة

لقد افتتحت فصولي هذه عن علي محمود طه بأنه أصبح أغنية في فم الجيل الجديد، وأن شعره أصبح أنشودة من أناشيد مصر الحديثة . ولقد كنت أعني ما أقول حينما افتتحت فصولي هذه بهذا الكلام . كنت أعني أن أقول إن الشاعر علي محمود طه هو شاعر . عتري يقول شعراً فيقع في فؤاد مصر الحديثة شداً ويقع فيه غناء ... إن الديباجة البحرية في الشعر العربي هي أصلح الديباجات للغناء . إن كل كلمة من كلماتها موزونة ومقدورة ومجودة .. ألم يقولوا إن البحترى أراد أن يشمر قمحتي لماذا نالوا هذا الذي قالوه ؟ إنهم قالوه لما نقوله اليوم في شاعرنا المصري الرقيق . لقد زعم بروكلمان الألمانى في كتابه « تاريخ التأليف العربى » أن علي محمود طه يدين للرومانتيك الفرنسي في القرن التاسع عشر - وهو الاتجاه الخيالى الفنى والقوى والعقل - وأنه انتفع في اطراد بما تأثر به في خلق فن قوى في دوائه . ونحن لا يميز علينا أن يتأثر شعراؤنا بالمذاهب الأدبية التي تضرع الشرق أو الغرب ، ففي هذا التأثير دليل من الحيوية والاتصال بركب الحياة والاستجابة للعالم الخارجى ، ولكن الذى يميز علينا هو هذا التجريد من الأصالة الذى يرمينا به مؤرخو الآداب الأجانب مهما مدحونا بعد ذلك وأنشوا على شاعرية شراثنا وأدب أدباثنا . إن علي محمود وغيره علي محمود طه من الشعراء المصريين إن كانوا قد تأثروا بالمذاهب الأدبية الخارجية إلا أنهم لا يدينون لهذه المذاهب بتلك الأصالة التي هي جزء من الطبع المصرى الشاعر، والتي تجري بكل مقوماتها في الجبلية المصرية منذ عرفت مصر الفنون والمعلوم والآداب، وقد عرفتها قبل غيرها من الأمم ... إن النزعة الرومانتيكية التي

ينزع إليها أكثر شراثنا ، بل شعراء العالم العربى الأماثل ليست بضاعة واردة ، بل هي طبيعة هؤلاء الشعراء التي طبعهم الله عليها ، كما طبع عليها شعوب البحر المتوسط في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، هذه الشعوب التي رزقها الله تلك الأمزجة الرومانتيكية المزهفة المولعة بالغناء والموسيقا والشعر والنحت والتصوير والبلاغة البيانية وسائر الفنون التي تفتقر إلى هذا المراج الرومانتيكى . ولقد حوكت بعض الأسباب الدينية شعوب العالم العربى ، ومعظمها من شعوب البحر المتوسط ، عن النحت والتصوير قرونًا طويلاً ؛ فانصرفت طاقة هذه الشعوب الوجدانية كلها إلى الفنون الأخرى وفي مقدمتها الشعر فأنت فيه بالمعجز والمطرب كما يقولون ، وخرجت القصائد من قرائح الشعراء المصريين والشاميين والعراقيين والمغربيين راقصة معجبة في العصر الحديث ، كما كانت تخرج من قبل في الشرق العربى وفي المغرب الأندلسى والمغرب الأقصى راقصة معجبة ، والمزاج الرومانتيكى بجميع مقوماته بزاج أصيل في جبل شعوب البحر المتوسط ، تلك الشعوب التي اخترعت أديانها قديماً من الخيال الخالص ، والتي وضعت أصول فنونها على أسس وجدانية تشبه الشعر إن لم تكن الشعر المحمى نفسه . ومن الناحية القومية ، فالوطنيات التي نشأت على شواطئ هذا البحر هي من أقدم الوطنيات في التاريخ إن لم تكن أقدمها جميعاً . ولقد كانت الوطنية تخرج بالدين في مصر القديمة وعند اليونان والرومان ، وأسطورة البقرة هاتور والإله حابى إله النيل هي أسطورة مشهورة مأثورة . وإذا كان لعلى محمود طه شعر قوى فجميع الشعراء المصريين أشعار قومية ، بل نستطيع أن نقرر أن أكثر من نصف الشعر العربى الحديث قد قيل في مناسبات قومية . وواجبنا عند ما نقرر هذا ذكر شاعر قوميتنا الأول المغفور له حافظ إبراهيم الذى كان ولا يزال له قرناء في الوطنية في جميع الأقطار العربية . وعندى أن الثناء هو الظاهرة العامة في شعر علي محمود طه ، الثناء الجميل الذى توزن له الألفاظ وتستجد البحور وتسترق القوافى . ولو لم يكن الأستاذ عبد الوهاب أغنية الجنيدول لغنتها

تشككت نفسي بما تنهى إليه دنياها وماذا تكون
مضت فما آبت بما تشهى من حيرة الفكر وهس الظنون!
فتشمر أن أبا الملاء والخيام يختبئان في هذه النفس الحائرة،
لكنه سرعان ما يرد إليك الطمأنينة إذ يخبرك أنه شاعر، وأن
صناعته هي رد الطمأنينة إلى القلوب الشاكية، ومسح الدموع
عن الديون الباكية!

ها أنذا أرفع آلامه إلى سماء المنفذ الأعظم
أنا الذى ترسل أنفامه فيثارة القلب ونأى القم !!
من عبراني صفت هذا المقال ومن لهيب الروح هذا القلم
ملأت منه صفحات الليال فضمت كل معاني الألم
أنا الذى قدست أحزانه الشاعر الباكي شقاء البشر
فجرت بالرحمة ألعانه فأملأ بها يارب قلب القدر
ولو تفضل الفارسي فرجع إلى بقية المنظومة في « الملاح

التائه » لاطمأن على هذا الفؤاد الحيران ، ولعرف أن حبيته
قبس من الإيمان ، فإن لم يجد مصداق ذلك فليقرأ حلم ليلة
الهجرة ، وعام جديد ، وعيد ميلاد ، ليشهد كيف تصدق شاعرية
على محمود طه في كل ما تنفى به من فصول تلك الحياة . إن ميزة
شاعريته الصديق في كل ما تقول ، فهي كالروح الذى يتدفق
في الجسم الحى ، وهي لا تتدفق حكمة كما كانت تتدفق شاعرية
الأنبي ، ولا فلسفة ونشأوما كشاعرية أبي الملاء والخيام ،
ولا وصفا للطبيعة واندماجا فيها كشاعرية ذى الرمة مثلاً ،
لكنها تتدفق غناء كشاعرية البحترى . ولقد عدنا بعض
منظومات على محمود طه الفنائية الرائعة ، ونرجو ألا يحكم أحد
علينا بالخلافة قبل أن يرجع إلى دواوين الشاعر ليراجع هذه
المنظومات البديعة ، وليجبل فكره في هذا الذى نقوله ، ليرى
بعد ذلك أننا غير ظالين ولا مباليين في شاعرية على محمود طه التى
تترقق سحراً كما تترقق غناء ... حتى في منظومات الألم
والأسى ... أجل ... إنها تترقق سحراً وغناء حتى منظومات
الألم والأسى .. ومن ذا الذى يقرأ منظومته « الموسيقى العمياء »
في ليالى الملاح التائه ، ولا يسمع إلى ألحان الأبنى المنكوبة

غيره من مطربي العصر الحاضر أو من مطربي المصور المقبلة ، وليست
الجندول وحدها هي الجديرة بغناء عبد الوهاب ، بل إن من نظمه
ما يوشك أن يغنى نفسه . فما بال مطربينا نأعين عن هذا الكثر
الذين ؟ إن من الأمية أن يهمل مطربونا غناء قطع على محمود طه
الحالدة : بحيرة كومو ، نخرة الرين ، أغنية ليالى النيل ، كأس الخيام ،
وكلها في ليالى الملاح التائه ؛ وقلة ، والنشيد ، وميلاد شاعر ،
وهي في الملاح التائه ؛ وليالى كابوبطرة ، وسارية الفجر ، وأغنية
الحب ، ونخرة الشاعر ، وزهراني ، وراقصة الحانة ، والشاعر^(١) ،
وعاشقة ، والكرمة الأرنى ، وحلم ليلة الهجرة ، ليلة عيد الميلاد ،
وعام جديد ، وكلها في مجموعته « حر وزهر »

فأى شاعر يملك هذه الثروة من المنظومات الفنائية الساحرة
يجهله الفنانون في وطنه كما يجهل الفنانون في مصر على محمود طه
برغم ما لفهم إليه الطارب الفنان محمد عبد الوهاب ؟

ومع هذه المنظومات الكثيرة التى اخترناها هنا من مختلف
دواوينه ، فإن قصائده الباقية تكاد تنفى نفسها كما قدمنا . إنها
قصائد غر تسمع لشدها جرساً يخرج من صميم أبياتها فيترقق
في سمك كرتين الذهب . ولعل الذى يكسبها هذه الميزة هي تلك
الشاعرية الصادقة التى تتجلى فيها جيماً ، والتى يظنها القارىء
تناقضاً في شخصية على محمود طه ، أو تناقضاً في آرائه ومعتقداته ،
إذ كيف تمل ما جاء في قصيدته « الله والشاعر » مثلاً ، أو في
ننايا « أشباح وأرواح » من نمرود على الله وعلى البصيرة ، وضرب
في صحراء العقل الشاك ، وهذا الإيمان المجيب الذى يهرك نوره
في قصائده « حلم ليلة الهجرة ، ليلة عيد ميلاد ، وعام جديد »
إنك تقرأ من منظومته الرائعة « الله والشاعر » هذه
الآيات يخاطب بها الله :

أمنذرى أنت بيوم الحساب ؟ ولائى أنت على ما جرى ؟
رحماك ما يرضيك هذا المذابح لطيع لم يصح ما قدراً !
ما كنت إلا مثلاً ركبت غرائزى ، ماشئت لا ما أشاء
فلتجزها اليوم بما قدمت وإن تكن مما جنته براء